

والأداء الشفاهي من المسائل المهمة التي ينبغي اعتبارها حين ننشوق إلى فهم حقيقة الدور الذي يضطلع به السجع في النص القرآني، فالتلاوة الجهرية^(١) كانت الأساس في انتشار القرآن، ومن ثم كان لابد من احتواء النسيج القرآني على دعامة لغوية تسهم في استعادة ذلك النسيج بصورته لفظاً ومعنى، فكان السجع بمثابة نتيجة طبيعية لشفاهية الأداء؛ وذلك لما به من جوهر موسيقي يعلق بالأفئدة. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٢).

ولعل الحلاوة والطلاوة التي استشرهما العربي في النص القرآني وحاول الجاحظ أن يبرز علتها - كانتا إفراناً لأمر؛ من بينها عناية النص بالجرس والإيقاع من خلال توظيف الأدوات الإيقاعية "كالسجع" الذي يضيف - في موضعه - دلالة مستمدة من الطبيعة الصوتية للحروف بما يحقق من موسيقى تتسق مع إطار الآية وإطار السياق وإطار السورة كلها.

وانشغال عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) بقضية النظم، التي لم تتخلص من الدوران في إطار ثنائية اللفظ والمعنى، قد أخرج من حظوته الالتفات إلى فضيلة الجانب الصوتي حتى إنه استبعد أن يكون البرهان الذي بان للعرب، والأمر الذي بهرهم في القرآن راجعاً إلى الفواصل وأواخر الآيات، كما رفض أن يكون قول ابن مسعود "إذا وقعت في "أل حم" وقعت في روضات دلمات أتأق فيهن"^(٣) رفض أن يكون ذلك القول من أجل الفواصل والتحسين الناتج من تشابه الحروف الأخيرة من الآيات.

(١) ثمة ضربان من قراءة النصوص: النصوص غير المكتوبة وتسم قراءتها بكونها شفاهية جهرية. أما النصوص المكتوبة فالأساس فيها هو القراءة الصامتة عن طريق البصر. ولا شك أن التراث الديني يستمر في توثيق أولية الشفاهي حتى فيما كان منه قائماً على نص مكتوب، ففي المسيحية نجد أن كتابها المقدس يقرأ بصوت عال أثناء الصلوات الشعائرية. وتظل الجهرية خاصة النص القرآني حتى بعد تدوينه بين دفتي المصحف لأن شعائر الصلاة الجماعية تتم من خلال التلاوة الجهرية والسماع حيث تشكل المستمعين في مجموعة ذات وشائج موحدة، ويتحقق من خلال التلاوة الجهرية حضور الخالق عز وجل كمخاطب يتحدث إلى البشر.

(٢) سورة القمر: ٢٢.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.